جمالية الرمز وأثره في بناء المعنى – قصيدة عاشق من فلسطين لمحمود درويش نموذجا–

The Beauty of the Symbol and Its Impact on Semantics- The Poem of 'Lover from Palestine' by Mahmoud Darwish as an Example

صفية بن زينة

جامعة الشلف (الجزائر)، s.benzina@univ-chlef.dz

تاريخ الاستلام: 2020/08/07- تاريخ القبول: 2020/09/24- تاريخ النشر: 2020/09/30

ملخّص: وظّف شعراء العصر الحديث الرمز في قصائدهم، وكان توظيفهم له متنوعا ومتباينا في نصوصهم، إذ نجد بأنّ هؤلاء قد اتخذوا من الرمز آلية أو تقنية لإبراز كفاءاتهم الشعرية من جهة، والإحالة على معاني يكتشفها الدارس من جهة أخرى، حين يقبل على تحليلها وفك شفراتها. ومن شعراء العصر الحديث الذين استخدموا الرمز بكثرة، محمود درويش، إذ لا يكاد يخلو نص شعري منه، وما يلاحظ على الرموز التي استخدمها أنّها منتجة لمعاني متعددة، إذ قد يدلك رمز واحد على دلالات مختلفة في آن واحد، هذه الميزة في شعره شكّلت نمطا أسلوبيا خاصا به، تفرّد به عن أقرانه، والرمز عنده عنصر مهم في تعميق المعنى الشعري، ومصدر من مصادر التأثير في المتلقي. ومن أجل هذه الخصائص والسمات في شعر محمود درويش، اخترنا قصيدة " عاشق من فلسطين " نموذجا، للكشف عن كيفية اشتغال الرمز في شعره.

كلمات مفتاحية: شعر، محمود درويش، دراسة، رمز، معنى.

Abstract:
Contemporary poets employed the symbol in their poems. The use of symbol was varied and contrasted in their texts. They used symbolism as a technique to show their poetic competency on the one hand, and refer to meanings which will be revealed by the reader, on the other. Among the contemporary poets who used symbolism extensively, we can cite Mahmoud Darwish, where almost none of his poetic texts is free of symbols. It can also be noticed that the symbols that he used bear multiple meanings, that is a single symbol may refer to different meanings at the same time. This feature made his style distinct. The symbol is considered by Mahmoud Darwish as an important element in deepening the poetic meaning and one of the sources to influence the reader. For the sake of these characteristics in his poetry, we chose the poem of "Lover from Palestine" as an example, to reveal how the symbol works in his poetry.

Key words: poetry, Mahmoud Darwish, study, symbol, meaning.

المؤلف المرسل: صفية بن زينة، **الإيميل**: safou_nour@hotmail.com

1.مقدمة:

يعد محمود درويش أحد المرتكزات الأساسية في الشعر العربي الحديث، وواحدًا من أكثر الشعراء المعاصرين الذين أشبعت أشعارهم دراسة وتحليلا، بسبب غزارة إنتاجه الشعري وتميزه، لذلك استحق لقب الصدارة والتألق في فضاءات الشعر العربي والعالمي، فالألفاظ عند درويش ترتدي زيًا شاعريًا لا يتأتى لكثير من الدارسين تحليل نسيجه وفك رموزه؛ لأنه انفرد عن غيره من الشعراء برموز خاصة مبدعة جعلته متميزا عن غيره.

وتوظيف الرمز في القصيدة الحديثة سمة مشتركة بين غالبية الشعراء على مستويات متفاوتة من حيث البساطة والعمق، وهو سمة أسلوبية وأحد العناصر الجوهرية التي تسيطر على لغة القصيدة الحديثة وتراكيبها وصورها وبنياتها المختلفة، والرمز بشتى صوره المجازية والبلاغية والإيحائية تعميق للمعنى الشعري، ومصدر للإدهاش والتأثير وتجسيد لجماليات التشكيل الشعري، وإذا وظف الرمز بشكل جمالي منسجم، واتساق فكري دقيق مقنع، فأنه يسهم في الارتقاء بشعرية القصيدة وعمق دلالاتها وشدة تأثيرها في المتلقي.

أبدع محمود درويش في توظيف الرمز في نصوصه الشعرية، إذ لا تقرأ قصيدة من قصائده، إلاّ وتلمح رمزا أو رموزا، داخل نسيج إبداعه، وإضافة إلى تلك اللغة الشعرية الراقية، التي نظم بها قصيده، تجد أنّ الرمز قد أضفى دلالات مشحونة بأحاسيس وانفعالات تناسب السياق الذي كتبت فيه القصيدة.

لهذه السمات الأسلوبية، وأخرى، اتخذنا من قصيدة عاشق من فلسطين نموذجا تطبيقيا، سنبرزه من خلالها، تقنية توظيف محمود درويش للرمز في شعره. منطلقين من الإشكاليات الآتية:

ما طرائق توظيف الرمز في شعر محمود درويش؟ وما الغاية من ذلك؟ وما الدلالات التي أنبأ عنها الرمز في شعره؟.

وللإجابة عنها، اعتمدنا على المنهج الوصفي، لبيان هذه الظاهرة في شعر محمود درويش، وتحليلها، واستعنا بتقنية الإحصاء لحصر الرموز في النموذج الذي اخترناه للدراسة.

2. تعريف الرمز:

1.2 الرمز لغة:

إنّ الرمز باتفاق جل المعاجم وحتى في معظم دلالات اشتقاقاته يحمل معنى ايجابيا كالعظمة والنموذج،والأصل، والمبجل، والعاقل...

ورد في لسان العرب في مادة (رمز)، الرمز معناه تصويت خفي باللسان كالهمس، ويكون تحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة بصوت إنما هو إشارة بالشفتين، وقيل الرمز إشارة وإيماء بالعينين والحاجبين والشفتين والفم (منظور، 1997، صفحة 119)

وجاء في القرآن الكريم في قصة سيدنا زكرياء عليه السلام ﴿قال ربي اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾(سورة آل عمران، الآية 41) أي إشارة بنحو يد أو رأس، وأصله التحرك، فممّا ورد في تأويل الرمز في هذه الآية الكريمة، أن زكريا " عليه السلام "عوقب حين سأل الله عز وجل آية؛ أي علامة على أن هذه البشارة بـ" يحي "إنما هي فعلا بشارة من الله رغم مشافهة الملائكة إياه بذلك، فعوقب " فأخذ عليه بلسانه، فجعل لا يقدر على الكلام إلا ما أومأ وأشار" (الطبري، 2000، صفحة 345)،أي أن ترمز بلسانك الكلام، وربما أطلق الرمز على ما يشير إلى شيء آخر، ويقال لذلك الآخر مرموز إليه، جمعه رموز وعليه قول الشاعر:

وقال لي برموز من لواحظه إن العناق حرا م قلت في عنقي (البستاني، 1998، صفحة 250)

2.2.الرمز اصطلاحا:

نلاحظ من الحد اللغوي للرمز خروجا إلى دائرة الاصطلاح في قوله:" وربما أطلق الرمز على ما يشير إلى شيء آخر، وهذه العلاقة الداخلية التي قال بها "بارث " والتي تربط الدال بالمدلول وتظهر جليا على حد قوله فيما يسمى (رمزا)، فالصليب مثلا يرمز إلى المسيحية، إذن فالعلاقة بين الصليب والمسيحية هي علاقة رمزية.

ويعتبر الرمز وسيلة إيحائية من أبرز وسائل التصوير، وبخاصة في الشعر أو في النثر وهي قديمة، ولكن الشاعر المعاصر غلبها في تجاربه الشعرية؛ للانتقال الحداثي من بلاغة الوضوح إلى بلاغة الغموض في سعيه الدائم وراء اكتشاف وسائل تعبير لغوية يثرى بها لغته الشعرية ، فهو مرتبط كل الارتباط بالتجربة الشعرية التي يعانيها في واقعه الراهن.

فالرمز الشعري يبدأ من الواقع، ليتجاوزه دون أن يلغيه إذ يبدأ من الواقع المادي المحسوس ليتحول هذا الواقع إلى واقع نفسي وشعوري تجديدي، يند عن التجديد الصارم (أحمد، 1984، صفحة 33).

وقد استخدمه الشاعر بدعوى أن اللغة العادية عاجزة عن احتواء التجربة الشعورية، وإخراج ما في اللاشعوري، وتوليد الأفكار الكثيرة في ذهن القارئ، فبالرمز تستطيع اللغة نقل هذه التجربة واجتياز عالم الوعي إلى عالم اللاوعي، وهذا ما عناه إليوت بقوله :" الرمز يقع في المسافة بين المؤلف والقارئ لكن صلته بأحدهما ليست بالضرورة من نوع صلته بالآخر، إذ إن الرمز بالنسبة للشاعر محاولة للتغيير ولكنه بالنسبة للمتلقي مصدر إيحاء " (أحمد، 1984، صفحة 33).

وبذلك يحمل الرمز دلالتين، دلالة تعبيرية ودلالة إيحائية، وقد حظيت قضية الرمز بالكثير من الاهتمام من طرف الشعراء والنقاد، وهي تستعمل للدلالة على (المثال)، كأن يعبر الفرد عن طبقة ينتمي إليها وقد يراد بها إنابة القليل عن الكثير أو الجزء عن الكل، فالكلمة تختلط آنا بمعنى الإشارة التي يحال فيها على شيء محدد، ومن ثم يتبادر إلى الذهن أن الرمز ما ينوب ويوحي بشيء آخر لعلاقة بينهما من قرابة أو اقتران أو مشابهة " (ناصف، دت، صفحة 125).

غير أن الاهتمام الحقيقي بتعريف الرمز، بدأ مع فلاسفة عصر النهضة والفكر الحديث في أوربا الذين أفردوا للكلمة أبحاثا جادة، تتناولها من الناحية التاريخية والفكرية وكذا في استعمالاتها الواسعة والمختلفة ، في الفن والأدب ، والشعر والقصة والتصوير...الخ.

فالرمز الشعري هو التعبير عن فكرة ما، باستعمال وسائط، إذن هو تركيب لفظي أساسه الإيحاء عن طريق المشابهة، بما لا يمكن تحديده بحيث تتخطى عناصره اللفظية كل حدود التقرير موحدة بين الشعور والفكر (بلعلى، 1989، صفحة 4).

إنّ الرمز يجعل الشعر يعود إلى فطرته الأولى؛ أي إنه لا يظهر الأشياء بصورتها المحسوسة، بل يعمل على بث موجات من المشاعر تدفع القارئ على أن يحس بأن هناك عالما آخر يتكون خلف هذا العالم المرئي (رجاء، 1985، صفحة 106). والرمز الشعري بأبسط معانيه" هو الدلالة على ما وراء المعنى الظاهري مع اعتبار المعنى الظاهر المقصود أيضا" (صالح، 1981، صفحة 351).

وهذا المفهوم الواضح للرمز لم يظهر إلا في العصر الحديث، فالرمز كان يعني عند القدماء الإيجاز فهو أسلوب يتضمن التلميح والإشارة بدل الكلام ، ويبتعد عن الشرح والإطناب.

ومن هنا فقد ارتبط مفهوم الرمز أدبيا بالمعنى اللغوي من حيث هو إشارة حسية تمتاز بالإيجاز وغير المباشرة، ويعد ذلك سبب الغموض بالقياس إلى الإطناب والمباشرة.

وتتلخص خصائص الرمز الشعري في أنه :" ضد الشرح، والتسمية والعاطفة المصطنعة والوصف الموضوعي، وهو يحاول أن يلبس الفكرة المطلقة شكلا محسوسا، شكلا ليس غاية في ذاته ولكنه يستهدف التعبير عن الفكرة وفي الوقت نفسه يظل موضوعا لها، كما أن الفكرة بدورها لا يمكن إدراكها دون سياق خال من التشبيهات الخارجية، لأن السمة الجوهرية في الفن الرمزي تتضمن باستمرار صورة الفكرة بداخلها" (أحمد، 1984، صفحة 82).

يعكس هذا النص خصائص الأسلوب الرمزي الذي يميزه الاهتمام بالأفكار المطلقة التي لا يعبر عنها مباشرة أو بواسطة التشبيهات المعروفة، إنما يكون الرمز هو الأساس في التعبير عن الفكرة المطلقة.

3. دلالة الرمز في شعر محمود درويش:(دراسة في القصيدة).

إنّ استحضار الرموز في الخطاب الشعري الحديث، سمة ظهرت عند شعراء الحداثة من أجل التعبير بها عن خلجات نفوسهم والتنفيس عن واقعهم المأزوم والمهزوم، فنجد في شعرنا العربي العديد من الرموز التي أصبحت أقنعة يتراءى خلفها الإنسان المعاصر، المطحون بالأحداث اليومية فيحول شعره في مجمله إلى حكايات تتنوع رموزها التي يستدعيها في نصوصه بين الشخصيات والأحداث التاريخية، والأماكن التي ارتبطت بقضايا إنسانية وقومية وغيرها، والتي من شأنها إثراء التجربة الشعرية أكثر.

وإذا كانت اللغة الشعرية هي لغة المجاز، فإنها أيضا لغة الرمز، ذلك لأن مساحة الرمز في الشعر واسعة وآفاقه رحبة وطاقته الإيحائية كثيفة، وبما أن الرمز من أهم الأسس الأسلوبية التي يقوم عليها

تشكيل الصورة عند درويش وأحد مكوناتها الأساسية فسوف نقف عنده؛ لنرى كيف يشتغل إلى جانب المكونات الأخرى في قصيدة (عاشق من فلسطين). إذ تستدعي العملية الإبداعية استخدام كلمات ذات طابع خاص وخلق مجاورات ومحاورات بين الألفاظ والعبارات في نص القصيدة، مع تشكيل الصور الجمالية والموسيقى الإيقاعية والرموز وغير ذلك، مما يحدد معمارية القصيدة، بمعنى آخر، إن الشاعر يختار أنساقا تركيبية وتصويرية معينة ذات فلسفة شعرية وشعرية جمالية، وتجعلها متميزة بذاتها وأساليبها.

وقصيدة عاشق من فلسطين، قصيدة اشتهر بها محمود درويش، وذاع صيتها، فكانت محل أنظار النقاد والدارسين، فتعددت دراساتهم فيها، واختلفت أشكالها، نظرا لما تحمله من عمق في المعنى، وتنوع في الدلالة، وهي قصيدة ضمن مجموعة ديوان عاشق من فلسطين، نشرت عام 1966، حيث أنها تنتمي إلى مرحلة متقدمة من الشعر.

1.3.علاقة العنوان بالمضمون (عاشق من فلسطين).

يعدّ العنوان هو البهو الذي ندلف من خلاله إلى العبارة النصية؛ إنّه "مجموع الدلائل اللسانية من كلمات وجمل، حتى نصوص قد تظهر على رأس النص لتدل عليه وتعينه، وتشير إلى محتواه الكلي ولتجذب جمهوره المستهدف " (السامرائي، دت، صفحة 141).

أولا كلمة عاشق : فهي تحيلنا على العديد من الكلمات في مجال الاختيار (الدال) عاشق على وزن فاعل، فالعاشق هو الذي ينجح في الارتباط، والذي يهيم في الحياة حبا لحبيبته، أو الروحاني الخاص، والذي يتمثل هنا في هذه القصيدة هو عشق الوطن والأرض هي فلسطين، فالمعشوقة هنا هي فلسطين، والتي شغلت مساحات كبيرة في شعره، لامتزاج روحه، وفكره، ولغته بها، إذ تعلق بها أيما تعلق، سابحا في هواها، كما لم يسبح أحد، إلى حد التوحد والحلول فيها؛ إذ يقول: " أنا لا أكون إلا في الأرض، وكل وجود لي خارجها، إنما هو ضياع وتيه نهائي، لتكن الأرض في داخلي تكتبني وأكتبها " (اعتدال، 1984، صفحة 193). فالأرض / فلسطين عنده هي الجغرافيا كلها؛ جغرافيا الشعر، جغرافيا الكتابة، جغرافيا الأرض، ولأنها كذلك اشتعلت شهوة الكتابة في روح وذات الشاعر: محبا وعاشقا لها، هائما فيها، مدافعا عنها، ثائرا من أجلها، وهي دلالات تجتمع لإنتاج معنى آخر يتحسسه القارئ، فهنا درويش يخاطب وطنه.

وعندما نقرأ " عاشق من فلسطين " تستدعى العذاب والأحزان التي عانى منها هذا العاشق في هذه الأرض المباركة، والأرض الطاهرة المقدسة، وآلامه في الغربة وحزنه المكبد في قلبه، فالمحور الذي تدور حوله القصيدة هو عشقه لفلسطين الوطن، الأرض، الماء، التراب، البيت، الهواء، الحبيبة، السكن، الاطمئنان، الحب، الشموخ، البطولة، الزيتونة ...

وقد ابتدأ درويش القصيدة بقوله:

عيونك شوكة في القلب

توجعني ... وأعبدها (درويش، 2005، صفحة 87)

في هذا السياق نجد كلمة عيونك هنا مشبهة بالسهام، وحينما قال :(شوكة في القلب) هنا تعبير عن معاناة الشاعر وعذابه، فالشوكة مرتبطة بالألم، وعندما جعلها درويش هنا ليزيد من حدة التوتر، فهذه فلسطين عندما يغرس شوكها في القلب، عندما كان ملتصقا بترابها، متنسما عبيرها.

وأحميها من الريح

وأغمدها وراء الليل والأوجاع ... أغمدها

فيشعل جرحها ضوء المصابيح (درويش، 2005، صفحة 87)

يصوّر الشاعر الآلام والمعاناة التي تعرضت لها حبيبته فلسطين، حيث شبه الجرح بالإنسان لأن الجرح شيء معنوي، لا يمكنه الحركة، فكيف له أن يشعل ضوء المصابيح، ويكفي هنا أن الشاعر اختار لفظة " يشعل " وأسقطها على لفظة الجرح ليغيب توقع القارئ، يقول:

يجعل حاضري غدها (درويش، 2005، صفحة 87)

حيث يصبح الغد هو الذي يصنع الحاضر، فهنا انزياح حيث الأصل أن الحاضر هو الذي يصنع الغد وليس العكس، وفي ذلك قيمة شعرية ودلالية، هو غير متوقع من الشاعر أن الحاضر المؤلم الموجع هو أعز عليه من روحه.

كلامك ...كان أغنية

وكنت أحاول الإنشاد

ولكن الشقاء أحاط بالشفة الربيعية

كلامك ، كالسنونو، طار من بيت

فهاجر باب منزلنا، وعتبتنا الخريفية (درويش، 2005، صفحة 87)

فكلام المعشوقة كان أغنية، يحاول العاشق إنشادها؛ فالأغنية دالة على الحرية والانطلاق والفرح والاطمئنان والاستقرار، ولكن كل هذا ضاع، لما حلّ الشقاء وأحاط، حتى بالربيع رمز الخصب والتكاثر والجمال والسكون والهدوء.

وكلام المعشوقة قد شبهه بطائر السنونو، وهو نوع من الطيور الأليفة الصغيرة التي تطير بسرعة كبيرة وتهاجر إلى الأماكن الدافئة، وترتبط غالبا هجرتها ببداية الصيف ولها ذيل متشعب، هذا الطائر الذي يحب الأماكن المقدسة والمرتفعة والأشكال الهندسية الراقية، وهو الذي يهاجر دائما من مكان لآخر باحثا عنها، قد هاجر باب المنزل، هاجر القدس (باب منزلنا) حيث يرمز هنا إلى فقدان الوطن، وغيابه بسبب الطيران فهذا الطائر يرمز إلى هجرة اللاجئين، وبهذه السمة المعجمية وإيحائها، أتيح للشاعر التعبير عن الحزن الذي سببه غياب حبيبته الوطن، فتضيف المفردة لهذه الصورة ملمح الطيران السريع، وبالتالي فقدان الأرض المفاجئ.

ولقد استثمر درويش في قصيدته النموذج جانبا من المكونات المعجمية، لهذه الطيور فقد دلّ عليها بالمفردات التالية: طار، هاجر، الخريف، الربيع...الخ، جانبا من المعاني الإيحائية، وفي قوله:(كلامك كالسنونو طار من بيتي) دليل الهجرة والنفي والسجن الجبري والذي فرضه الاحتلال، فلولا الظروف المناخية لما هاجرت هذه السنونو أيضا، لكنها ستعود كما سيعود كل فلسطيني إلى داره.

وهاجر العتبة الخريفية، فالخريف هنا علامة دالة على الحزن واليأس والكآبة والهجرة والاصفرار أيضا. فكلام المعشوقة فلسطين كالطير المهاجر، كالسنونو الذي يهاجر من مكان لآخر فالفلسطينيون هم لاجئون أرغموا على ترك وطنهم.

وراءك ، حيث شاق الشوق

وانكسرت مرايانا

فصار الحزن ألفين (درويش، 2005، صفحة 88)

لقد عبّر درويش هنا عن الحزن والألم، نتيجة اللجوء والضياع والتشرد، وذلك بانكسار المرايا، وفي المنفى أصبح الشيء الذي يتقنه اللاجئون هو البكاء على ضياع الوطن، وهنا دعوة الشاعر على التبصر بالحقيقة، وهي أن الشعب الفلسطيني لن يحي حياة جديدة إلا الموت والتضحيات الجسام، فلا بدّ من معرفة هذه الحقيقة والوعي بها إذا أراد الشعب الحصول على الحرية.

يقول :

ولملمنا شظايا الصوت...

لم نتقن سوى مرثية الوطن

سنزرعها معا في صدر جيتار

وفوق سطوح نكبتنا ، سنعزفها

لأقمار مشوهة... وأحجار (درويش، 2005، صفحة 89)

يتبين لنا استمراره بالتغني، ومحاولته الإنشاد في سطوح النكبة والسطح هنا رمز، لأنّ الرؤية تكون شاملة وواضحة إذا كانت من السطح، وكذلك استعمال الشاعر العزف هنا بدلا من أن يكون ليطرب الناس في مجالس الأنس أصبح هنا لأقمار مشوهة وحجارة صماء.

يقول :

و لكني نسيت ... نسيت ... يا مجهولة الصوت

رحيلك أصدأ الجيتار... أم صمتي ؟ (درويش، 2005، صفحة 89)

يصف لنا الشاعر حالة الجيتار، حيث أصبح صدأ إما بسبب رحيله عن وطنه، أو بسبب صمته وتوقفه عن نظم القصائد.

يقول :

رأيتك أمس في الميناء

مسافرة بلا أهل ... بلا زاد

ركضت إليك كالأيتام

أسأل حكمة الأجداد (درويش، 2005، صفحة 89)

يتحدث الشاعر عن الميناء، ولكنه يكرهه؛ لأنه المكان الذي من خلاله بدأت رحلة اللجوء والتشرد والضياع، حيث ازداد فيها البعد، فالميناء هو رمز الرحيل والسفر والانتقال إلى مكان آخر بعيد عن الوطن فهذا الوطن أصبح بلا زاد، بلا أهل، فالأهل هم اللاجئون الذين خرجوا من الوطن مكرهين رغما عنهم، والزاد هم المناضلون هم جزء من اللاجئين و قوله :(كالأيتام) دليل على شعورهم بالظلم والقهر والحزن.

يقول :

لماذا نسحب البيارة الخضراء

إلى سجن، إلى منفى ،إلى ميناء

وتبقى، رغم رحلتها

ورغم روائح الأملاح والأشواق

تبقى دائما خضراء (درويش، 2005، صفحة 89)

وهذا دليل على أن ما أصاب فلسطين من تشتت وضياع وحزن، رغم هذه المحن ستبقى دائما خضراء، وكلمة خضراء هي رمز للخصوبة والنماء والخير والأمل. فاللون " الأخضر: يعدّ رمز الخصوبة والنماء حيث يرتبط بالطبيعة والأشجار، وفصل الربيع ويتخذ في الأديان على الإخلاص والخلود والتأمل الروحي والبعث وهو ذو بعد روحي عند المسلمين لاتصاله بالنعيم والجنة، فيستدل به على معاني الخير والجمال والعطاء (سعيد، 2001، صفحة 117).

وفي القصيدة يدل على قلب المحبوبة الأرض(البيارة الخضراء....الخ)، والدلالة المشتركة هي الرؤى المتفائلة، البركة، الخصوبة(حدود الشام ازرعها).

يقول :

و أكتب في مفكرتي:

أحب البرتقال ... وأكره الميناء (درويش، 2005، صفحة 89)

لم يذكر فلسطين إلا أنه استخدم ما يدل عليها، حيث قال:(أحب البرتقال)، في الواقع أنه يحب بلده فلسطين ويكره الرحيل عنه .

يقول :

وقفت وكانت الدنيا عيون الشتاء

وقشر البرتقال لنا وخافي كانت الصحراء

رأيتك في جبال الشوك

راعية بلا أغنام

مطاردة ، وفي الأطلال ...

وكنت حديقتي ،وأنا غريب الدار (درويش، 2005، صفحة 89)

توحي لنا عبارة " عيون الشتاء "على الحياة الجديدة فهنا استعارة فلا يمكن أن تكون للشتاء عيون، فهذا انزياح يدل على انبعاث حياة جديدة .

أما قوله :" قشر البرتقال لنا "،هذا دليل على القهر والاضطهاد من قبل العدو الغاشم إسرائيل ، فبعدما كانت فلسطين لها كل شيء، أصبحت الآن كغريب الدار وغدا الأعداء ينعمون فيها، ويرى الشاعر محبوبته " فلسطين " في جبال الشوك وهو رمز للألم والصعاب، أثناء رحلة التهجير، هي " راعية لكنها بلا أغنام "، أي بلا أهل ولا مناضلين، لكن الشاعر يرسم في مخيلته صورة جميلة، وهي حديقته التي لجأ إليها كلما ضاقت به الدنيا، وعندما يقول: (أنا غريب الدار). هنا يظهر شعوره الحقيقي، فهي لم يعد لها وجود، ويدق الشاعر على قلبه مكان الآمال والأحلام والآلام.

يقول :

رأيتك في خوابي الماء والقمح

محطمة رأيتك في مقاهي الليل خادمة

رأيتك في شعاع الدمع والجرح

وأنت الرئة الأخرى بصدري (درويش، 2005، صفحة 90)

يرى الشاعر محبوبته في خوابي الماء والقمح، وذلك تصوير لحياة الفلسطيني البسيطة التي تعتمد على الماء والخبز، كما رأى الشاعر معشوقته فلسطين وهي محطمة، وذلك بسبب العدو الصهيوني، أمّا الليل فهو دلالة على الحزن والألم، وكذلك دلالة على الظلم والقهر، وبذلك أصبحت فلسطين خادما للعدو، أما رمز الشعاع فهو رمز للأمل والحياة والتفاؤل، وبداية للحرية، حيث يعتبر الشاعر وطنه هو الرئة الأخرى التي يتنفس منها. وذلك ليصبح على قيد الحياة.

ويقول :

أنت أنت الصوت في شفتي ...

وأنت الماء ، أنت النار

رأتك عند باب الكهف ... عند النار

معلقة على حبل الغسيل ثياب أيتامك

رأيتك في المواقد ... في الشوارع (درويش، 2005، صفحة 92)

يقصد هنا الشاعر بالماء فلسطين، أي المقاومة التي ستطفئ نار الاحتلال، ويرمز إلى الكهف إلى الأيتام، والمواقد على شدة الألم والوجع .

ويقول :

وأقسم : من رموش العين سوف أخيط منديلا

و أنقش فوقه شعرا لعينيك

واسما حين أسقيه فؤاد ذاب ترتيلا (درويش، 2005، صفحة 92)

ثمّ يتابع درويش وصفه وأنه سيخيط من رموش العين منديلا، ويحقق هنا الانزياح وذلك بهدف إبقاء همة القارئ وحماسه في متابعة العبارات الشعرية، وكلامه (سوف أخيط منديلا هنا) استعارة، حيث جرت العادة أن يخاط المنديل من قطعة قماش لا من رموش العين.

فلسطينية كانت ولم تزل، يواصل الشاعر هنا وصفه وهو يؤكد على الهوية الفلسطينية، فمهما حدث لفلسطين الحبيبة ستصمد وتواصل كفاحها، الذي بدأت به حتى حصولها على الحرية والاستقلال اللذين سعا إليهما منذ الأزل.

ويقول :

فلسطينية العينين والوشم

فلسطينية الاسم فلسطينية الأحلام والهم

فلسطينية المنديل والقدمين والجسم

فلسطينية الكلمات والصمت (درويش، 2005، صفحة 93)

وأرقي المعالم حيث جعلها أكثر وحدة، وأكثر تماسك على أرضها، ففلسطين هي الحياة هي الهواء الذي نتنفسه.

ويقول :

وباسمك ،صحت في الوديان

خيول الروم؟...أعرفها

خذوا حذرا...

من البرق الذي حكته أغنيتي على الصنوان (درويش، 2005، صفحة 94)

يتحدث هنا عن الاحتلال الذي هو تكرار لما فعله الروم مع تغير الأرض، والعدو، فهنا كلمة الخيول أو الحصان، قد شغلت حيزا كبيرا في لاوعي درويش منذ بداياته، لذا ظلت تلح عليه في الظهور داخل منبره الشعري، حتى وإن لم يوردها فالصورة الواحدة تظهر في مواطن مختلفة ضمن سياقات يحددها موضوع القصيدة، ربما راجع لحداثة ما في نفسه، أمّا رمزية البرق فهي دلالة على الثورة أي المقاومة الفلسطينية ستشعل النار على العدو الغاشم.

ويقول :

أنا زين الشباب ،وفارس الفرسان

أنا ومحطم الأوثان

حددوا الشام أزرعها

قصائد تطلع العقبان (درويش، 2005، صفحة 94)

هنا الشاعر يؤكد على الفروسية والعروبة التي تأبى الذل والهوان، وعندما يقول " حدود الشام أزرعها " فهو يشبه قصائده بالنبات الذي سيزرع في حدود الشام، وسيكون سببا في إطلاق العقبان أي الثوار الفلسطنيين.

ويقول :

وباسمك صحت في الوديان

كلي لحمي إذا مت يا ديدان

فبيض النمل لا يلد النسور

وبيضة الأفعى ...

يخبئ قشرها ثعبان

خيول الروم ... أعرفها

واعرف قبلها أني

أنا زين الشباب وفارس الفرسان (درويش، 2005، صفحة 94)

في نهاية القصيدة يشبه الشاعر الأعداء بالديدان تحقيرا لهم، فقوله :" كلي لحمي إذا ما مت يا ديدان" أي بإمكان الاحتلال أن يأكل لحم الفلسطينيين في حال توقفهم عن المقاومة والنضال، والتصدي للاحتلال، فقد ذكر الدود بصيغة الجمع وهي دويبة صغيرة مستطيلة عديمة الفقار من أنواعها دودة القطن– القز – الكبد– الأمعاء، أما في قصيدتنا فهي الدود الآكلة للحم الإنسان عند موته، فقد طلب الشاعر من اليهود الصهاينة أن تأكل لحمه إذا نامت المقاومة، ويقصد هنا عدم الدفاع عن الوطن، هنا فقط يتدخل هؤلاء المحتلين بالقضاء على الشعب الفلسطيني، وهذا لن يحدث أبدا؛ لأنهم أصحاب الأرض وسيقاتلون لأجلها حتى النصر إن شاء الله.

وهنا الشاعر في حالة وصف لدولة إسرائيل، حيث شبهها بالنمل؛ ليحقّرها ويحط من شأن اليهود، فهم لا يرتقون إلى الجوارح المفترسة من الطيور، أمّا شهداء المقاومة الفلسطينية فشبههم بالنسور، والنسور هنا هم أطفال الحجارة، أبناء القضية وأهل الوطن، أهل الحقّ. حيث لا يرقى بيض النمل بالنسور، فهناك تحقير لدولة إسرائيل واستصغارها.

أمّا قوله: و(بيضة الأفعى يخبئ قشرها ثعبان)، فهنا شبه درويش إسرائيل بالأفعى، وهي رمز للخيانة والحقد والمكر، والنفاق، أمّا " يخبئ قشرها ثعبان " أي أن دوره كان في حماية هذه الأفعى وإخفاء قشورها بعد الفقص، فهنا شبه الثعبان بدولة أمريكا التي تحمي إسرائيل، وتزودها بالقوة التي يستطيع بها الفتك بهذه الدولة المستضعفة. والتي تريد أن تجعل لإسرائيل دولة في فلسطين، وتسعى لذلك. إذ يقال أن إسرائيل هي البنت المدللة لأمريكا، والشعر الفلسطيني كان سلاحا من أسلحة المعركة نبه النيام، واستنهض الهمم وفضح أساليب الاستعمار، وكشف عن رسائل الصهيونية ونشر الوعي، وتوقع المأساة وتنبأ بالكارثة، ودعا إلى تجنب حدوثها واستلهم العبر (كامل، 1985، صفحة 168).وقد انفرد درويش عن غيره من الشعراء برموزه الخاصة المبدعة التي جعلته متميزا عن غيره؛ لأنّ الرمز في نظره " وسيلة إدراك ما لا يستطاع التعبير عنه " (ناصف، دت، صفحة 153).

4. خاتمة :

خصت الدراسة بالتركيز على البنى الرمزية من حيث قيمتها الفنية والتعبيرية، وأثرها في أساليب تشكيل الصور الشعرية، ولأنّ الرمز طريقة من طرائق إدراك ما لا نستطيع التعبير عنه باللفظ الكثير، فإنه يشكل أحد أهم عناصر التصوير الرمزي، وهو شكل يبرز رؤية الشاعر الخاصة تجاه الوجود، ويعمل على تخصيبها، كما أنه يمكن الشاعر من استبطان التجارب الحياتية، ويمنحه القدرة على استكناه المعاني استكناها عميقا، مما يضفي على إبداعه نوعا من الخصوصية والتفرد.

فقد استطاع الشاعر محمود درويش توظيف الرمز بمختلف صوره في قصيدة " عاشق من فلسطين"، باعتباره عنصرا مهما في تعميق المعنى الشعري، ومصدرا من مصادر التأثير في المتلقي، وهي تُمَكِّنُ من إحالة المتلقي على معاني يكتشفها ويقبل على تحليلها وفك شفراتها المنتجة للمعاني.

ويعد توظيف الرمز من الظواهر الفنية التي اتسمت بها القصيدة ؛ حيث هيمن استعمال الرمز عليها، وهذه الهيمنة ترسم للقارئ صورة واضحة عن تكوين الشاعر وخلفيته الفكرية والمعرفية التي انطلق منها لصياغة نصه الشعري.

كما تعكس تقنية توظيف الشاعر للرمز في قصيدته حُسْنَ توليده للمعنى بآليات وأدوات إجرائية، ودليلا على امتلاكه للموهبة الفنية، وإبرازا لقدرته الشعرية.

5. قائمة المصادر و المراجع:

– المصحف الشريف، برواية حفص.

– أحمد محمد فتوح،(1984)، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، القاهرة.

– إبراهيم السامرائي، (دت)، لغة الشعر بين جيلين، دار الفكر، عمان.

– ابن منظور، (1997)، لسان العرب، دار صادر، بيروت.

– بطرس البستاني، (1998)، محيط المحيط (قاموس عربي مطول)، مكتبة لبنان، بيروت.

– رجاء عيد، (1985)، لغة الشعر– قراءة في الشعر العربي الحديث – ، مطبعة الأندلس، القاهرة.

– سعيد جبر أبو خضرة، (2001)، الدلالات اللغوية في شعر محمود درويش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

– صالح أبو أصبع، (1981)، الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

– كامل السواقيري، (1985)، الشعر العربي في مأساة فلسطيني – 1900 – 1960، عالم الكتب، القاهرة.

– محمد بن جرير الطبري، (2000)، جامع البيان في تفسير القرآن، سورة آل عمران، دار إحياء التراث، بيروت.

– محمود درويش، (2005)، ديوان عاشق من فلسطين، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت.

– مصطفى ناصف، (دت)، الصورة الأدبية، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

الأطروحات:

– آمنة بلعلى، (1989)، الرمز الديني عند رواد الشعر العربي الحديث،(السياب، عبد الصبور، خليل حاوي، أدونيس)، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات، الجامعة المركزية، الجزائر،1989.

المقالات:

– عثمان اعتدال، (1984)، النص نحو قراءة نقدية إبداعية لأرض محمود درويش، مجلة فصول، المجلد 5، العدد 1، ص95– 125.